

## الفصل التاسع

بنو أمية (فرع الحكم) ٨٦ - ٩٦

٧٠٥ - ٧١٥ م

الوليد الأول - الفتوحات في الشرق - التوغل في أفريقيا - موسى  
ابن نصير - حاكم المغرب - شؤون الأندلس - استبداد رودريك  
طارق بن زياد بمر جبل طارق - موقعة سيدونيا - موت رودريك  
فتح الأندلس - الزحف على فرنسا - استقدام موسى وطارق  
الإدارة المربية في الأندلس - الولايات - نتائج التنافس القلي  
وفاة الوليد الأول - أخلاقه

خلافة الوليد  
الأول

ولما بويع «الوليد» بالخلافة بادر «الحجاج» أمير المشرق إلى عزل «يزيد  
ابن المهلب عامل خراسان، وعين مكانه زعيما مضريا يدعى «قتيبة» وكان قائداً  
باسلا عليا بفنون القتال، صارما شديد الوطأة، لا يثنيه شيء عن عزمه، شأن  
الكثير من القواد الذين تحدثنا عنهم الرواية الأوربية. ويقال إن «الصفد»  
سكان أواسط آسيا حتى شمال نهر أركسوس كانوا قد وافقوا في أوائل عهده على  
أن يعيشوا بسلام مع المستوطنين المسلمين، وعلى أن يقبلوا الولاية في حواضرهم  
ليشرفوا بأنفسهم على مصالح العرب، غير أنهم وجدوا في عزل «يزيد بن المهلب»  
فرصة سانحة لنيل استقلالهم، فوثبوا بالعرب النازحين ومزقواهم شرمزق. ولكن  
الخليفة أنفذ إليهم في الحال جيشا كثيفا ظل يحاربهم طوال عشر سنوات ارتكبت  
في خلالها أروع ضروب السفك والتدمير، حتى أتيح «اقتيبة» أن يخضع  
بلادهم نهائيا حتى حدود كاشغر.

الفتوحات في  
الهند

وفي تلك الأثناء رأى «محمد بن القاسم» عامل مكران أن القبائل القاطنة  
بين السند وبلوختان ما انفكت تناوئه، فزحف بجيشه على الهند وبمد أن

اشتبك مع أهلها في عدة معارك أخضع السند ومولتان وجزءاً من البنجاب حتى انتهى إلى حدود إليس .

أما « مسلمة بن عبد الملك » الذي كان يعد أشجع أفراد الأسرة المالكة<sup>(١)</sup> فكان يقود جيشاً عربياً في آسيا الصغرى كما كان « العباس » ابن الخليفة نفسه يقود جيشاً آخر ، فأدت حركتهما المشتركة إلى إخضاع عدة مواقع هامة في آسيا الصغرى .

وفي عام ٨٧ هـ ولى « الوليد » ابن عمه « عمر بن عبد العزيز » الحجاز ، وكان أول ما قام به تأسيس مجلس شورى من قضاة البادية لكي يساعده على تصريف شؤون الولاية ، وأضحى لا يبت في أمر من أمورها إلا باستشارة هذا المجلس ، محاولاً بذلك إصلاح الأخطاء التي ارتكبتها أسلافه في المدن المقدسة في أيام « يزيد » و « عبد الملك » ، كذلك جمل مكة والمدينة أحسن تجميل ، وشيد فيهما المباني العامة ، وحفر الجارى والآبار ، وأصلح الطرق التي تربط العاصمة بالمدن الأخرى . وعلى الجملة كان رجلاً حازماً ، معتدلاً ، محباً لترقية شعبه ورفاهيته ، فتمتعت البلاد في ظله بنعمة الطمأنينة والعدل ؛ الأمر الذي أغرى بعض العراقيين بالالتجاء إلى الحجاز فراراً من بطش طاغية الولايات الشرقية الذي أخذ الآن يوغر صدر الخليفة على عمر بن عبد العزيز حتى عزله سنة ١٢٥ هـ ، فوقع هذا الخبر على أهل الحجاز وقوع الصاعقة . وكان أول ما قام به الحاكم<sup>(٢)</sup> الجديد أن طرد جميع اللاجئين من العراقيين ؛ ومما يجب ذكره أيضاً أن الحجاج كان قد سجن « يزيد بن المهلب » وإخوانه وراح يسومهم صنوف العذاب ، ولكنهم برغم ذلك تمكنوا من الفرار إلى سليمان أخى الوليد .

عمر بن  
عبد العزيز  
حاكم الحجاز

(١) لم يظفر « مسلمة » بالخلافة نظراً إلى أن أمه كانت أمة ، ولم يكن الأمويون في أول أمرهم يولون إلا أولاد الحرائر . (المغرب)  
(٢) استشار « الوليد » الحجاج فيمن يوليه على المدينة فأشار بعثمان بن حيان المرى فولاه إياها . (المغرب)

الفتوحات في  
أفريقيا عام  
٨٨٩ هـ

هذا هو مجمل الحوادث التي وقعت في الشرق : أما في الغرب فقد كان « حسان بن النعمان » لا يزال يحكم أفريقيا بالحكمة والعدل بعد مقتل الكاهنة ولكن الخليفة لم يلبث أن عزله سنة ٨١٩ هـ ، وعين مكانه « موسى بن نصير » الذي كان أبوه رئيس الشرطة في زمن « معاوية » ورفض أن يشترك في موقعة صفين ، غير أن أبا سفيان برغم ذلك صفح عنه وقدر له حرية رأيه .

كان عزل « حسان » عن ولاية أفريقيا إيذاناً بثورة البربر الذين أخطأوا فهم ما كان عليه « موسى » من بعد الهمة وقوة الحكمة ، فاشتبك معهم هو وأولاده في سلسلة معارك رائعة ، مرق فيها شملهم ، وأقصى الخرضين اليونانيين عن البلاد ووطد فيها الأمن ، كما استطاع بما عرف عنه من حب العدل والإنصاف أن يجذب إليه جميع الأعيان ، وعين الفقهاء لتعليم الناس أحكام الدين . ولما رأى بثاقب فكره أن الجيش البيزنطي ما فتى يهاجم العرب من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، سير جيشاً كبيراً عليهم لتأديبهم ، ففزا جزائر منورقة وميورقة وإيفيقية ، وضمها إلى الإمبراطورية العربية . وعندئذ أخذت تلك الجزر تزدهر كما ازدهرت المدن الأخرى التي سبق أن احتلها العرب ، فشيدت فيها المباني الجميلة ، وأدخلت مختلف الحرف اليدوية ، وتقدمت مرافق البلاد تقدماً محسوساً ، وأصبح « موسى بن نصير » كالحجاج بن يوسف أمير المشرق ، حر التصرف في تسيير دفة الأمور في ولايته . وكانت إمارة أفريقيا تمتد من حدود مصر الغربية حتى شواطئ المحيط الأطلسي ما عدا كيوتا . (وتشتمل على الجزر الغربية في البحر الأبيض المتوسط) التي كان يحكمها الكونت « يوليان » من قبل ملك القوطيين بالنيابة عن إمبراطور الرومان .

وفما كانت أفريقية تتمتع بنعمة الطمأنينة والعدل ، وتسير بخط واسعة في

(١) كان مسيحياً واعتنق الإسلام ، وهو من بلدة عين التمر على مقربة من الأنبار غربي الكوفة بالقرب من قرية شفاة . (المغرب)

طريق التقدم والفلاح تحت رعاية الحكم العربي ، كانت أسبانيا تزرع تحت نير القوط الشديد الوطأة . ويمكننا أن نقول إن أهل تلك البلاد لم يشاهدوا حالة أسوأ أو أتسى من الحالة التي كانوا يثنون منها تحت سلطان هؤلاء الملوك . فكانت الطبقات الغنية والأعيان معفاة على الجملة من دفع الضرائب ، كما كان الشأن في عهد الرومان ؛ أما الطبقة الوسطى التي ألتى على عاتقها نير هذا العبء الثقيل ، فقد أخذت تهبط سراعاً إلى دركات الفاقة والخراب ، حتى ضُفِّف فيها النشاط الصناعي من جراء فداحة الضرائب ، وتعطلت الحركة التجارية والصناعية ، ومنيت البلاد بشلل محزن ، لا يقل هولاً عن الشلل الذي أصابها عقب خروج المسلمين منها . والمعروف أنها كانت وقتئذ مقسمة إلى إقطاعيات عديدة يعيش في كل منها ملاكون يتقبلون في أعطاف الترف والنعيم ويسكنون في القصور الشائخة ، حيث يقصون أوقاتهم في أخرى ضروب الفسق والفجور ؛ وكانت الزراعة يزاؤها إما الأقتان الذين كانوا يباعون ويشترون مع الأرض التي يعملون فيها ؛ وإما فئات العبيد البائسين الذين يكدحون ويكدون تحت أسواط أسيادهم الغلاظ الأكباد . وكان الأقتان والعبيد على حد سواء قد فقدوا كل رجاء في استنشاق نسيم الحرية ويثسوا من سطوع نجمها عليهم ؛ ولم يكن أحد منهم ليستطيع الزواج إلا بموافقة سيده ، كذلك كان يتحتم على الزوجين بمقتضى نصوص القانون أن يوزعا أطفالهما بالتساوي بين صاحبي الأرض . وعلى الجملة كان الأقتان والعبيد يمشون في عالم مليء بالخرافات انحطوا فيه إلى أحط الدرجات الخلقية والمادية معاً .

أما اليهود الذي كان يعيش عدد كبير منهم في أسبانيا فكانوا يمانون أقعى الاضطهاد من جور الملوك والكهنة والأعيان ، وقد بلغ بهم اليأس ذات مرة درجة حاولوا معها الخروج على أسيادهم ، وشقوا فعلا عصا الطاعة ، غير أنهم أخفقوا في محاولتهم نظرا لسوء تديبرهم ، فنكل بهم الأسبان أشد تنكيل ، وصادروا

أملأهم وعاملوا من بقي منهم حياً معاملة الأرقاء ، ووزعهم شيباً وشباناً ذكوراً وإناثاً على السكان المسيحيين ، ولم يسمحوا إلا للشيوخ منهم بالتمسك بدينهم القديم رافة بهم ورحمة منهم !! أما الشبان والأطفال فقد لقنوا العقيدة المسيحية وحظر على اليهود الذكور التزوج من اليهوديات . وهكذا كان العقاب الذي أنزله رجال الدين -- أصحاب السلطة -- باليهود الذين ثاروا لكرامتهم . وغدا هؤلاء العبيد التعساء والأقنان البائسون واليهود المضطهدون يتربقون الخلاص ولات حين مناص ؛ وفي ساعة النزع الممض ، أشرق عليهم قبس الحرية من جهة لم تكن في الحسبان ، إذ غدت الدولة العربية الجامعة على الضفة الأخرى من المضيق ملجأ يهرع إليه الناس من اضطهاد الإكليروس واستبداد حكام القوط ، ولكم لاقى الأسبان صدوراً رحبة في أفريقيا الإسلامية ، فماشوا في كنفها مطمئنين بيدين عن طغيان الملوك وجور رجال الدين .

وفي تلك الأثناء بينما كان « موسى بن نصير » يحكم أفريقيا بالعدل ، نادى رودريك (Roderick) بنفسه ملكاً على أسبانيا ، بعد أن قتل ملكها الأصلي المسمى وتيزا (غيطشه) ، فسعى جوليان حاكم سبته إلى الاتفاق مع مهاجري الأسبان واستنجد في الوقت نفسه بالوليد ، فأنهز موسى هذه الفرصة وأرسل جماعة يقودهم « طريف » بن مالك لاستطلاع الأحوال في الساحل الجنوبي ، ثم نزل طارق بن زياد أحد القواد الأكفاء ، ومعه سبعة آلاف<sup>(١)</sup> بالموقع

---

(١) قام طارق في أصحابه ، فحمد الله ثم حض الناس على الجهاد ورجعهم في الشهادة ، وبسط لهم في أمالهم ثم قال : « أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس ثم وافة إلا الصدق والصبر فإني لا يفلان ، وما جندان منصوران ، ولا تضر معهما قلة ، ولا تنفع مع الحور والسكر والفشل والاختلاف والعجب أكثره ، أيها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقتت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . ألا وإنى عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتبيه حتى أخالطه وأقتل دونه ، فإن قتلت فلا تنهوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا ففتشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبددوا بين قبيل وأسير ، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تمطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما يجمل لكم من =

المعروف الآن باسمه ؛ وبعد أن حصنه وأخذ منه قاعدة لحر كاته العسكرية غشي ولاية الجيكراس<sup>(١)</sup> (الجزيرة) التي كان يحكمها تدميراً أحد عمال (روذريق)، فتقابل الجيشان ودارت بينهما معركة هائلة أسفرت عن انهزام القوط، الذين كانوا قد حاولوا صد العرب عن التقدم، وعندئذ شرع «طارق» في زحفه المشهور على طليطلة في إثني عشر ألفاً. وبينما كان روذريق مشغولاً في إخماد الثورة التي اشتمل أوارها في المناطق الشمالية بلغه خبر نزول المسلمين في بلاده فقفل راجعاً إلى العاصمة، وأوعز إلى الرؤساء الإقطاعيين أن يلتحقوا به مع جنوده في قرطبة. وكان الجيش الملكي نفسه كبير العدد، فلما جاءت إليه الأمداد بلغ في جملة زهاء مائة ألف، ولهذا كان جيشا العرب والقوط غير متكافئين عند ما تلاقيا على ضفاف نهر كوادليت في شمالي سيدونيا<sup>(٢)</sup>. ومع أن أولاد وتيزا الذين كانوا يسخطون على روذريق انسحبوا من الميدان بعد المعركة الأولى، فقد ظلت تحت قيادة الملك قوة هائلة مجهزة بأحسن الأجهزة، وأخذت تقاوم العرب وتصد هجومهم حيناً من الزمن. غير أن «طارق بن زياد» حمل عليهم بنفسه حملة صادقة فهزمهم شر هزيمة وشتت شملهم وأغرق ملكهم في مياه نهر الكوادليت فأحدث هذا النصر<sup>(٣)</sup> المبين تأثيراً عظيماً على الأعداء، وأضعف قوتهم المعنوية

موقعة سيدونيا

هزيمة القوطيين

== من الكرامة والراحة من المهنة والذلة، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا والله معكم ومعيدكم تبوءون بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين. وما أنا ذا حامل حتى أغشاه فاحلوا بحملي . (العرب)

(١) أخذ هذا الاسم عن العربية من كلمة «الجزيرة» .

(٢) يقول المقرئ : « إن الجميع يتفق على أن المعركة وقعت على شاطئ نهر « وادي لكه » في منطقة «شيدونيا» . بينما يقول دوزي : « إن المعركة وقعت على شاطئ وادي بقه » ، وهو نهر صغير يسمى بنهر « سالادو » يصب في البحر » ويقول أيضاً : « إن تلك المعركة وقعت في ١٩ تموز سنة ٧١١ م . » .

(٣) لا يمكن أن يقلل انسحاب أولاد وتيزا من شأن هذا النصر المبين، إذ أن قائد جيش المسلمين على رأس ١٢٠٠٠ لقي جيشاً منظماً يبلغ عدده خمسة أضعاف عدد جيشه، فهزمه شر هزيمة .

كما أدخل اليأس إلى قلوبهم ، نغشوا مقابلته مرة أخرى . وصالحته مدينتا « شدونة » و « قرمونة » ، وأظهرت مدينة استجة التي لجأت إليها فلول جيش روزريق بعض المقاومة ، ولكنها صالحته أخيرا بعد أن نالت منه بعض الشروط المرضية .

وبعد أن قسم طارق جيشه الصغير إلى أربع فرق سير الفرقة الأولى إلى قرطبة ، والأخرى إلى مالقة ، والثالثة إلى غرناطة والبيرة ؛ وسار هو بنفسه على رأس القوة الرئيسية نحو طليطلة عاصمة القوط ؛ فأسلت مالقة وغرناطة وقرطبة الواحدة تلو الأخرى دون مقاومة تذكر ، ودانت له الجيكراس « الجزيرة » التي كانت خاضعة لسلطان تدمير ، وعندئذ هال القوط سرعة حركة طارق وشدة حملاته . ويقول أحد المؤرخين : « إن الله كان يملأ قلوب الكفار فرقا ورعباً » . وكان الأشراف إما يعرضون طاعتهم على الفاتحين أو يهيمون على وجوههم من بلد إلى آخر ؛ ونزح كبار الاكليروس إلى روما . أما عامة الشعب واليهود والأقنان البائسون فقد رحبوا بدخول المسلمين وعدّوهم مخلصهم من نير الصف والجور . ولما وجد طارق أن الأسباب قد مجروا طليطلة عاصمة بلادهم خلف فيها « أوباس » شقيق الملكة (غيطشه) في فرقة من المسلمين واليهود ، وسار بمن معه حتى انتهى إلى أستوركاوا . وعندما انتهت أخبار هذا النصر المبين إلى مسامع أمير أفريقيا « موسى بن نصير » حسد قائده هذا الفخر وسارع إلى أسبانيا في ١٨٠٠٠ ليكمل الفتح الذي بدأ به قائده المشهور . وكان في جيشه عدد كبير من سادات الهمن وأحفاد الصحابة الأولين ، فسار بهم شرقا حتى غشى سافيللا ومارده وفتحهما عنوةً فلحق به في « طليطلة » قائده المشهور « طارق بن زياد » . ولما التقى هذان القائدان<sup>(١)</sup> بعد هذا الغياب الطويل تنازعا في أمور

(١) استقبله طارق فأنبه وبالغ في إهاتته . ويقول جيبون في تاريخه « انعطاط وسقوط الدولة الرومانية » ما يلي : — « ولكن بلغ من دقة النظام وبقاء المحاسة وذكاء الحجة في صدور الإسلام أن تجاوز طارق عن ذلك الحزب » . (المرب)

لم تكن لتليق بمقامهما ، وإن كانت غير بعيدة عن روح العصر ؛ ولكنهما لم  
لم يلبثا أن اصطلحا ووحدا قوتيهما ثم زحفا على أراغون فأسلمت لها سرقسطة  
وتراغونة وبرشلونة وغيرها من المدن المهمة الشمالية . وفي أقل من سنتين غدت  
بلاد الأندلس حتى حدود جبال البرنيه خاضعة لسلطان العرب الذين احتلوا بعد  
سنوات قليلة بلاد البرتغال واعتبروها ولاية منفصلة وأطلقوا عليها اسم « الغرب »<sup>(١)</sup>  
ولكن المسيحيين الأسبان في جبال الأسترياس استمروا ويقاومون العرب ،  
ويمتنعون في حصونهم .

فتوحات موسى  
ابن نصير

عهد موسى بن نصير إلى قائده طارق مهمة إخضاع بقية المدن في « جليقية »  
وسار هو إلى فرنسا حيث استولى بسهولة على القسم التابع للحكومة القوط من  
بلاد « لانكودوك » . وما أن صعد القائد العظيم على جبال البرنيه حتى عقد  
النية على احتلال أوروبا برمتها . ولو سمح له وقتئذ بتحقيق فكرته لنجح على  
الأرجح في تدويج أوروبا والاستيلاء عليها ، إذ أصبحت تحت قدميه ، ولم تكن  
ثمة رابطة بين الأمم التي كانت تفصل موسى عن مقر الخلافة ، كما أنه لم يكن قد  
وجد بعد ذلك البطل الذي يستطيع توحيد الأقطار المسيحية ، ويقف بها سداً  
حائلاً أمام تقدم العرب ؛ غير أن سياسة الحذر والتردد التي اتبعها بلاط الخلافة  
في دمشق أضاعت تلك الفرصة الثمينة ؛ وظلت أوروبا تتخبط في دياجير الجهل  
والظلمات طوال الثمانية قرون التي أعقبت ذلك العهد . فبينما كان « موسى بن  
نصير » على وشك التوغل في فرنسا يأمل عبورها إلى إيطاليا ، جاءته أوامر  
« الوليد » ، فأوقف زحفه وقفل راجعاً إلى الأندلس التي كانت قد حصر  
اهتمامه في إخضاع بقية حصونها الجبلية حيث امتنع بعض المسيحيين وشيدوا  
معاقلهم المنيعه .

سار القائد العربي حتى انتهى إلى جليقية ، وبعد قتال شديد استولى على

(١) لا تزال ولاية في البرتغال الحديثة تسمى باسم الكارف .

قلاعها ، وأزاح العدو إلى جبال أوسترياس ؛ ولما استقر في لوكو أخذ يدير حركات الجيش في مطاردة الأعداء . وبفضل همة القائد الكبير طفقت العصابات تسلم الواحدة عقب الأخرى ما عدا « بيلايو » وقليل من أنصاره ، وكان قد أوشك هذا أيضاً أن يعرض طاعته ، ويتم بذلك احتلال البلاد كافة ، ولأن وصل في اللحظة الأخيرة رسول من الخليفة يأمر الفاتحين العظيمين « موسى » و « طارق » بالإسراع إلى الشام .

استدعاء موسى  
ابن نصير وطارق  
ابن زياد

ومهما تكن الأسباب الباعثة على استدعاء هذين الفاتحين موسى وطارق ، فما لا شك فيه أن دعوتهما تعد كارثة على مستقبل الإسلام في تلك الأنحاء ، إذ بعد أن غادر « موسى » بلاد الأندلس تنفس « بيلايو » الصعداء ، وشيد لحصون المنيعه في الجبال ، وألف نواة العصابات التي انتصرت فيما بعد على لولايات الإسلامية الجنوبية . وما أن ارتحل هذان القائدان المشهوران حتى خذ العرب يرمقون بعين الاحتقار وعدم الاكتراف تلك الفئة القليلة المتعصمة الجبال التي أخذ يزداد عددها وتمظم شوكتها رويداً رويداً . ويقول القرى في اريحه : « ليت المسلمين أطفالاً ذلك الشر الذي استعر لهيبه فيما بعد ، واتهم لمالك الإسلامية في تلك الأنحاء » . وقد رأى موسى قبل الرحيل أن يضمن ستقامة الأمور ، فاستعمل على تلك الولاية ابنه « عبد العزيز » وجعل حاضرتها شبيلية ، كما استعمل « عبد الله » ابنه الثاني على أفريقيا و « عبد الملك » صغر أبنائه على المغرب الأقصى ، وعهد إلى « عبد الصالح » قيادة الأسطول حاميات السواحل ، وبعد أن اتخذ كل هذه الترتيبات وضمن تنفيذها قفل إجمالاً إلى الشام يحف به رهط من أصحابه .

تأخر فتح أسبانيا  
١٦ - ١٨  
هجرة

بدأ باستيلاء العرب على أسبانيا عهد جديد تمخضت فيه البلاد عن ثورة جماعية لا تضاهيها غير الثورة الفرنسية في محاسنها دون مساوئها وشرورها ؛ ألغيت حقوق الطبقات المتأخرة ومعظمهم من رجال الاكليروس والنبلاء ،

ورفعت الأعباء الثقيلة التي سحقت الصناعة وأرهقت الطبقة الوسطى ، وامتدبات الضرائب الطاحنة بضرائب عادلة تتناسب وطبقات الأهلين — وهي الجزية التي تفرض على الذميين ، والخراج الذي يؤخذ من الذميين والمسلمين معاً — وكانت الجزية في حد ذاتها زهيدة ، إذ كانت تختلف باختلاف درجة الأشخاص الاجتماعية وحالتهم المالية ، علاوة على أنها كانت تستوفي سنوياً في اثني عشر قسطاً<sup>(١)</sup> ؛ وكان يستثنى من دفعها الرهبان والنساء والأطفال بوجه عام ، والمقعدون والعمى والمرضى والأرقاء بوجه خاص ، أما الخراج فكان يراعى في جمعه مقدار المحاصيل الزراعية ، ولهذا لم تعد ثمة ضريبة فادحة ينوء بحملها الزراعون ؛ كما نالت كثيراً من المدن الأسبانية في غضون الفتح امتيازات سخية حافظ العرب على تنفيذها بأمانة وإخلاص .

ولو استثنينا أملاك النبلاء ورجال الكليروس الذين فروا من البلاد أو التحقوا بالعصابات الغاليشية ، فإن الحكومة لم تصادر أملاكاً أخرى ؛ هذا فضلاً عن أنها كانت تعاقب بشدة كل جندي يثبت عليه أعمال العنف أو النهب مع أنها أعمال تقترن عادة بدخول الجيوش الفاتحة<sup>(٢)</sup> . وقد نال اليهود المضطهدون حرية إقامة الشعائر الدينية ، وتمتع المسيحيون في كنف المسلمين بحرية الاعتقاد وأتيح لهم اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، وعين لهم قضاة من أبناء طائفتهم للنظر في أحوالهم الشخصية التي سن لنظامها قانون خاص ، وأصبح الجميع متساوين يتمتعون بالحرية التامة في العبادة وإقام الصلاة ، وعين موظفون من المسيحيين لجمع الخراج من أبناء طائفتهم ، وغدت أبواب الوظائف على اختلافها مفتوحة على مصراعيها أمام المسلمين واليهود والمسيحيين على حد سواء . ولعل كثيراً من

(١) وهي تتراوح بين ١٢ إلى ٤٨ درهما ويساوي الدرهم فرنكاً واحداً .

(٢) للقارىء أن يراجع أخبار الحوادث التي اقتربت بدخول الجيش الألماني للنظم الأراضى الفرنسية سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ أو في الحرب العامة سنة ١٩١٤ لكي يفهم تماماً ويلات الحروب الطاحنة .

الدول المصرية تحسن صنعاً لو اقتبست من المسلمين أساليب الإدارة في أسبانيا .  
يبد أن أظهر نتائج الفتح ، هو تحسين حالة الطبقات المستعبدة ، التي كانت إلى  
ما قبل ذلك الحين تعامل معاملة السائمة ، فتبوءوا الآن في حكم المسلمين المراكز  
الجديرة بهم ، أما المبيد والأقنان الذين كانوا يزاولون الفلاحة في المزارع التي  
غدت ملكاً للمسلمين ، فقد وهبوا حريتهم وأصبحوا مزارعين أحراراً ،  
يستأجرون الأرض من أصحابها ويعتنون بها اعتناء المالك للملكه ، وأصبحت  
الأرض أرضهم ، فلا يطالبون إلا بدفع حصة من المحصولات الزراعية لأصحابها  
المسلمين ؛ وتحسنت أيضاً حالة الفئة التي ظلت تشتغل مع أسيادها المسيحيين ؛  
وذلك أن أي تظلم من سوء معاملة أسيادهم المسيحيين أو مجرد اعتناقهم الدين  
الإسلامي ، كان يؤدي حتماً إلى إخراجهم من ربة العبودية بمقتضى القانون  
الجديد ، قهافت الأقنان على اعتناق الدين الإسلامي ليفوزوا بحريتهم ويتمتعوا  
بنعم الحياة التي حرمت عليهم في أيام الحكم السابق ؛ كما اعتنق الأشراف  
والنبلاء الديانة الإسلامية ، وسواء أكان الباعث على اعتناق الإسلام هو  
الإيمان الصحيح أم الرغبة في اقتناص المنافع الشخصية ، فقد أخلصوا على كل  
حال لدينهم الجديد كل الإخلاص ، واعتنقوه بحمارة كما سيظهر فيما بعد . ولقد  
فضل المسيحيون حكم العرب — المنطوي على السخاء والكرم — على استبداد  
القوطيين وجور الفرنج ، وعادوا زرافات ووحداً إلى المدن والقرى التي كانوا قد  
هجروها من قبل . وحتى رجال الكهنوت لم يتبرموا من الحكم الجديد ، أو على  
الأقل ظاهره في إبان الفتح كما يقول « دوزى » . ويقول كاتب مشهور آخر  
من كتاب الأسبان : « نظم العرب مملكة قرطبة تنظيمًا جعلها أعجوبة الزمان  
في المصور الوسطى ، وحاملة مشعل العرفان والمدنية ، فأضاءت بنورها كافة  
أنحاء العالم الغربي ، الذي كان آنشد يتخبط في دياجير الجهل والنزاعات » .  
ويقول أيضاً في موضع آخر من كتابه : « يجب ألا يظن أن العرب كأقوام

البربر الذين سبقهم الى الأندلس ، عملوا فيها معاول التخريب والتدمير ، بل على العكس لم تتمتع الأندلس بحكم عادل مثل ما تتمتع به على أيدي هؤلاء العرب الفاتحين ؛ وإن المرء ليحار في معرفة كيف نبغ هؤلاء العرب في الإدارة مع أنهم نزعوا رأساً من صحاريهم ، كما أن انتصاراتهم السريعة في الحروب لم تفسح لهم مجالاً كافياً لدرس فن إدارة الأمم والشعوب .

تقسيم الإدارة

قسم العرب أسبانيا إدارياً إلى أربع مقاطعات كبيرة وعينوا لكل مقاطعة حاكماً يتصل رأساً بأمير الأندلس ، وكانت تتألف أولاها من أندلوسيا — الأراضى الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الوادى الكبير — والبقعة الممتدة من هذا النهر إلى وادى يانا ، ومدنها : قرطبة ، وأشبيلية ، ومالقة ، وجيان .

وتشتمل المقاطعات الثانية على أواسط أسبانيا ، يحدها البحر الأبيض المتوسط من الشرق وحدود لوزيتانا ( البرتغال الحالية ) من الغرب ، ونهر دورو من الشمال ، وأشهر مدنها : طليطلة ، وقونقا ، وسيقويا ، ووادى الحجارة ، وبلنسية ، ودانية ، وقرطاجنة ، ومرسية ، ولارقة .

وثالثهما تشتمل على جليقية ، ولوزوتانية ( البرتغال الحالية ) وأهم مدنها مريدا ، وباجة ، ولشبونة ، واستورقة ، وسمورة ، وشلنقة ، الخ .

ورابعها تمتد من شاطئ الدورو إلى جبال البرنيه على ضفتى نهر الأيبرو ؛ وأشهر مدنها : سرقسطة ، وطرطوشة ، وتراغونة ، وبرشلونة ، وتطيلة ، وولاد وليد ، الخ .

ولما امتدت الفتوحات فيما بعد أنشئت مقاطعة خامسة فيما وراء البرنيه مؤلفة من لاربونة ، وينم ، وقرقشونة ، وزيبه ، وآدج ، وماحيلون ، ولاديف .

وكان العرب يؤثرون السكنى فى هذه المدائن ، حيث تجمعوا فرقا على نمط الأحياء العربية ، وهذا التكتل وإن ساعدهم نوعاً ما على صد هجمات المسيحيين ، إلا أنه أدى إلى إنباء روح المنازعات وإثارة الأحقاد القبلية .

وفيا يلي جدول يبين توزيع القبائل والشعوب المختلفة التي نزلت في أنحاء تلك البلاد :

قبايل دمشق	قرطبة
قبايل حمص	أشبيلية
	نيبلة
قبايل قنسرين	جيان
قبايل فلسطين	شدونة
	والجزيرة
قبايل الأردن	رية
	ومالقة
قبايل الفرس	شريش
قبايل اليمن	طليطلة
قبايل العراق	غرناطة
قبايل مصر	ماردة
	ولشبونة . الخ

واستوطن المدن الداخلية عشرة آلاف من نبلاء الحجاز . وأنشأ عبد العزيز الذي استخلفه أبوه موسى قبل سفره إلى الشام ديواناً لتطبيق القوانين وأحكام الشرع حسب حاجات البلاد ، والعمل على مزج الشيعين الفاتحين وأصحاب البلاد الأصليين . وقد استطاع عبد العزيز بكياسته وتساهله أن يوفق بين جميع الطبقات ؛ وكان من سياسته تشجيع التزاوج بين هذين الشيعين ، شأنه في ذلك شأن ملوك المغول الأوائل الذين احتلوا الهند ؛ وقد تزوج هو نفسه بأرملة رودريك المسماة ايكولونا ، والتي يلقبها العرب « بأم عاصم » كما يكون قدوة لشعبه في تحقيق هذه الغاية .

توافد المهاجرون في الأصل من ممالك زراعية بطبيعتها كصروسوريا وإيران ، وكانوا كاليهود الذين كانوا يتبعونهم أينما رحلوا موهوبين بفريزة التجارة ؛ وكانت تعاليم النبي (ص) تحفزهم على أن يعملوا لدنياهم كأنهم يعيشون أبداً ، ولهذا أقبلوا على موطنهم الجديد بنشاط وهمة لا مثيل لها ، وشمروا عن ساعد الجد في ترقية البلاد وتحسينها بعد أن بقيت مشلولة طوال عهد الحكومة المسيحية . فأدخلوا عدة أعمال زراعية وأخصبوا الأرض القاحلة وعمروا المدن المهجورة وزينوها بالتماثيل الجميلة ، وربطوا بينها برباط التجارة والصناعة ، ومنحوا أهلها حق التصرف بالأرض ، وهو حق لم يتمتعوا به من قبل في عهد القوطيين ، وحرروا الأبقان من ربة العبودية التي كانت مسلطة على رؤوسهم تسلط السيوف المسلولة على الرقاب ، فأصبحت أسبانيا بهذا الفضل العميم أكثر الممالك الأوربية رغداً . وعلى الجملة فإن العرب خلقوا منها جنة وارفة الظلال تجرى من تحتها الأنهار ؛ وأسسوا فيها إدارة تعد بحق أنموذجا للإدارات ؛ وشجعوا الفنون والعلوم ؛ ولكنهم برغم كل ذلك عجزوا حتى في تلك البلاد النائية عن كبح خصوماتهم القبلية القديمة التي يشتعل أوارها في الصحراء . ومع أن الحظ وهبهم ساحة لتأسيس إمبراطورية فسيحة الأرجاء ، إلا أنهم أضاعوها لما كان يعوزهم من الوحدة والتآلف . وقد ازداد النزاع في أسبانيا واشتدت الخصومات بسبب عاملين جديدين أعانا على الفت في ساعدهم في تلك البلاد وهما :

(١) البربر — وكانوا يبغضون الضباط العرب بغضاً شديداً ، ويشورون عليهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ؛ ولا يخفى أن قمع حركاتهم كانت تؤدي دائماً إلى إضرام نار العداة العنصرى .

(٢) المسلمون الأسبانيون — وكان هؤلاء من جهتهم يمتقون العرب والبربر على حد سواء ، يكرهون العرب لكبريائهم وترفهم ، ويمقتون البربر لوحشيتهم وبربريتهم . ومع أن التعاليم الإسلامية الديمقراطية تمحو المفاضلة بين الأجناس

والألوان ، إلا أن العرب في تلك البلاد البعيدة التي احتلوها بجد السيف لم يقووا على التغلب على الاعتزاز بنصرتهم ، ذلك الاعتزاز الذي يمد بالضرورة صفة من صفاتهم الممتازة ، فهم كالأنجلوسكسونيين يمدون أنفسهم أنبل خلق الله . وتعيد العلاقة بين العرب والمولدين (أهالي البلد) إلى أذهاننا في صورة مصغرة ذكرى العداء المنصرى القديم بين النساويين والإيطاليين في ولاية لومباردى ، أو العداوة التي لا تزال تستمر بين الكلتيين والسكسونيين في إيرلنده الحرة . كان المولدون في أسبانيا كالأيرلنديين في الوقت الحاضر يصرون على أن يمنحوا الحكم الذاتي ، وعلى أن يحكمهم أفراد من بني جنسهم . وكان معظم الثورات التي يقوم بها المولدون ضد العرب يضرهم ناراها الفقهاء ، ذلك أن الأسبان اعتنقوا الإسلام بنفس الحماس المفرط الذي اعتنقوا به الديانة المسيحية من قبل ؛ فكانوا بتحريض الفقهاء يشرون على العرب للذود — في زعمهم — عن الإسلام ، كما شعروا تساهلا من العرب في معاملة النميمين أو تفسير نصوص الدين ، فأضمت هذه الصفات والاختلافات الإمبراطورية ، وأدت كما تكهن ابن خلدون إلى فقدان القسم الشمالي حتى برشلونة قبل أن تنقضى ٨٠ سنة على احتلالها .

والآن يجب أن نحول أبعارنا نحو الشرق حيث نجد الوليد لم يمتد به العمر ليستقبل القائدين الذين كان قد استقدمها من ميدان الظفر ؛ كما أنه حاول كأبيه بمساعدة الحجاج وقتيبة وكبار مضر أن يحصر ولاية المهدي في ابنه عبد العزيز ويعزل أخاه سليمان ، ولكن النية عاجلته قبل تحقيق أمنيته ، قبض بدير مران سنة ٧١٥ م ، وكانت ولايته تسع سنين وسبعة أشهر . ويعتبره السعدي وابن الأثير حاكما عنيدا ظلوما غشوما ، بيد أنه حقيق بنا في هذا الزمن البعيد ألا نذكر غير أفعال الرجل الحميدة ؛ وليس ثمة شك في أنه كان أكثر رحمة من أبيه عبد الملك وجده مروان بن الحكم ، بل لعله كان أكثر رحمة أيضاً من كثير من خلفائه ؛ ويعتبره أهل الشام بطبيعة الحال أشهر الخلفاء وأجدم

أثراً ، إذ شيد الجامع الأموي بدمشق ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأمر بتشيد وحفر الآبار في أنحاء الإمبراطورية ، وفتح المدارس والمستشفيات ، وألقى الصدقات غير المنظمة ، وجعل للفقراء والشيوخ من العطايا ما يقوم بأودهم ، وشيد الملاجئ للعميان والمقعدين واليتامى والمجاذيب ، وكان يزور بنفسه الأسواق ، ويراقب ارتفاع الأثمان وهبوطها ، وكان أول خليفة أموي شجع الحرف والآداب والفنون .

وكان من معاصري الوليد في القسطنطينية جوستنيان الثاني ، الذي قتل سنة ٧١١ م وخلفه فيليبسيوس الذي سملت عيناه ، وعزل في ٧١٣ م ، ثم ولى بعده أناستيوس الثاني ، وقد قتله ثيودسيوس الثالث سنة ٧١٦ ميلادية .